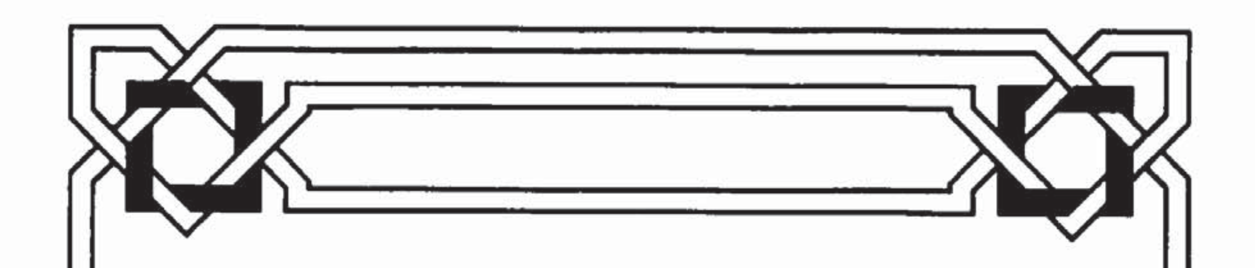


الباب الحادي عشر

ما فيه سعادة القلب

«وأنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلـٰهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه»

الفصل الأول

السعادة والتصور الكلي للنفع والضر

[التصور الكلي للنفع والضر]:

معلوم أن كل حي ـ سوى الله سبحانه وتعالى ـ: من ملك أو إنس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك له إلا بتصور للنافع والضار، والمنفعةُ من جنس النعيم واللذة، والمضرةُ من جنس الألم والعذاب.

ولا بدَّ له من أمرين:

أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به، ويلتذ بإدراكه.

والثاني: المعين الموصل المحصل لذلك المقصود.

وبإزاء ذلك أمران آخران:

أحدهما: مكروه بغيض ضار.

والثاني: معين دافع له عنه.

فهذه أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

[ارتباط ذلك بالله تعالى]:

فإذا تقرر ذلك، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصودَ المدعوَّ المطلوب، الذي يراد وجهه، ويبتغى قُرْبه، ويُطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك.

وعبودية ما سواه والالتفات إليه، والتعلق به هو الضار المكروه.

والله هو المعين على دفعه، فهو سبحانه وتعالى الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه.

فهو المعبود المحبوب المراد.

وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له.

والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته.

وهو المعين لعبده على دفعه عنه.

كما قال أعرف الخلق به عليه الصلاة والسلام: (أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك)[1].

وقال ﷺ: (اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووَجَّهتُ وَجْهي إليك، وفَوّضت أمري إليك، وألجأتُ ظَهْري إليك، رَغبةً ورهبةً إليك، لامَلْجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك)[2].

---

(١) أخرجه مسلم: (٤٨٦).

(٢) متفق عليه (خ٦٣١٣، م٢٧١٠).

فمنه تعالى المنجَى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله، أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه.

[سعادة العبد في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾]:

ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب والمستعان، هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: معنى ألوهيته.

والثاني: من معنى ربوبيته.

فإن الإلـه هو الذي تألَهُهُ القلوب: محبةً، وإنابةً، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيماً، وذُلاً، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاء، وتوكلاً.

والرب هو الذي يُرَبِّي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إلـه إلا هو، ولا رب إلا هو.

فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلـهية ما سواه.

[آيات كريمة تجمع أصلي التوحيد]:

وقد جمع سبحانه بين هذين الأصلين[1] في مواضع من كتابه.

---

(١) أي معنى الألوهية ومعنى الربوبية.

كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: ٨٨].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ [الفرقان ٥٨].

وقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٨-٩].

وقولـه: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فهذه سبعة مواضع[١] ينتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما ألبتة.

* * *

(١) ذكر المصنف ستة مواضع والسابع ما سبق ذكره في الفقرة السابقة من قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

الفصل الثاني

الشوق في الدنيا والنظر في الآخرة

[اجتماع الشوق والنظر]:

الوجه الثاني[1]: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له.

فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم.

وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئاً هو أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

ولم يعطهم في الدنيا شيئاً خيراً لهم، ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، والتنعم بذكره.

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي والإمام أحمد، وابن حِبَّان في (صحيحه) وغيرهم، من حديث عَمَّار بن ياسِر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو به.

(اللهمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب

---

(١) أي من الوجوه التي تؤمن سعادة العبد، وهو هنا الشوق إلى لقاء الله تعالى، والنظر إليه تعالى في الآخرة.

وكان المؤلف قد ذكر الوجه الأول في الفصل السابق، وهو اجتماع أصلي التوحيد.

والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يَنْفَدُ، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لاتنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهمَّ زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين)[1].

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلى وجهه سبحانه.

ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفاً على عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين، قال: «في غير ضَرَّاء مُضِرَّة ولا فتنة مُضِلَّة».

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالماً بالحق، متبعاً له، معلماً لغيره، مرشداً له قال: «وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

ولما كان الرضى النافع المحصل للمقصود هو الرضى بعد وقوع القضاء لا قبله، فإن ذلك عزم على الرضى، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضى بعده.

فإن المقدور يكتنفه أمران:

الاستخارة قبل وقوعه.

والرضى بعد وقوعه.

فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما، كما في (المسند) وغيره عنه ﷺ: (إن من سعادة ابن آدم استخارة الله. ورضاه بما قضى الله، وإن شقاوة ابن

---

(١) أخرجه النسائي برقم (١٣٠٤، ١٣٠٥).

آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله»[1].

ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل، سأل الله عزّ وجل أن يوفقه لكلمة الحق في الغضب والرضى، ولهذا قال بعض السلف: لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق.

ولما كان الفقر والغنى محنتين وبليتين، يبتلي الله بهما عبده. ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله عز وجل القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

ولما كان النعيم نوعين: نوعاً للبدن، ونوعاً للقلب، وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «أسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع».

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب، وكان القلب أعظمهما قدراً، وأجلّهما خطراً، وإذا حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: «زينا بزينة الإيمان».

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائناً من كان، بل هو محشو بالغصص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل «برد العيش بعد الموت».

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٥١) وقال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً: حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني وليس هو بالقوي عند أهل الحديث؛ وضعف الألباني الحديث.

[توحيد الربوبية غير كاف][1]:

والمقصود: أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة.

فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له، كحاجتهم إليه في خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم، بل حاجتهم إلى تـأليهه ومحبته وعبوديتـه أعظم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال.

ولهذا كانت «لا إلـه إلا الله» أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلـهية رأس الأمر.

وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم، فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم، كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع.

ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال:

(أتدري ما حق الله على عباده؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حقه على عبـاده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار)[2].

ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم، كما

---

(١) أي لابد من اجتماع توحيد الألوهية مع توحيد الربوبية.

(٢) متفق عليه (خ٢٨٥٦، م٣٠).

أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به ويأنس به، ويتنعم بالتوجه إليه.

ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ.

وكما أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فساداً لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون الله وحده إلـٰهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه، ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

* * *

الفصل الثالث

فقر العبد إلى عبادة الله

[حاجة العبد إلى العبادة]:

الوجه الثالث[1]: أنَّ فقر العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفَس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلـٰهه الحق، الذي لا إلـٰه إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كَدْحاً فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، وينعم بهذا في حال وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلـٰهه الحق فلابد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد التي هي موضوع الباب.

[ليست العبادة تكليفاً]:

لا كما يقولـه من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبُخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة.

ـ لمجرد الابتلاء والامتحان.

ـ أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالإيمان.

ـ أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان.

كما هي مقالات من بُخس حظه من معرفة الرحمن، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار وزُبالة الأذهان.

بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشأن.

والله المستعان، وعليه التكلان.

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، إذ هي من لوازم هذه النشأة.

[العبادة قرة للعيون وشفاء للصدور]:

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها سعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ـ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآنُ، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يِساف[1]: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة.

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

وقالت طائفة من السلف: فضله القرآن، ورحمته الإسلام.

والتحقيق: أن كلاً منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتنَّ بهما الله على رسوله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، والله سبحانه إنما رفع مَنْ رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما.

[اعتراض وجواب]:

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن؛ كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسمِّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط، بل سمَّاها روحاً ونوراً، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهداً، ووصية، ونحو ذلك.

* * *

الفصل الرابع

لذة النظر إلى وجهه تعالى يوم القيامة

[أعظم النعيم لذة النظر في الآخرة]:

الـوجه الرابع[1]: أن أفضل نعيم الآخـرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جلّ جلاله، وسماع خطابه.

كما في (صحيح مسلم) عن صُهيّب عن النبي ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله مَوعداً يريد أن يُنجِزَكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا؛ ويدخلنا الجنة، ويُجرْنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه)[2].

وفي حديث آخر (فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه)[3].

فبيَّن النبي ﷺ أنهم مع كمـال تنعمهم بمـا أعطاهم ربهم في الجنـة، لم يعطهم شـيئاً أحب إليهم من النظر إليـه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم بـه من اللذة والنعيـم والفرح والسـرور وقـرة العين، فـوق مـا يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتة.

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد التي هو موضوع الباب.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٤)؛ وضعفه الألباني.

ولهذا قال سبحانه في حق الكفار:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ـ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ـ٢٣].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم.

ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦].

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا، وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم بهم وضحكهم منهم.

ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية،

فقابل بذلك قولهم : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٣٢] .

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين النوعين ولابد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد النوعين يحتملان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عموماً .

[لذة النظر تابعة للمعرفة]:

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأمن به، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به، ومحبتهم له، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم .

* * *

الفصل الخامس
النصر والرزق بيد الله تعالى

الوجه الخامس[1]: إن المخلوق ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل الله وحده هو الملك، الذي له ملك ذلك كله.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ ﴾ [فاطر: ٣].
وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى

(١) أي من وجوه سعادة العبد.

غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الملك: ٢٠ـ٢١].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزْقه، فلابد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي. لطيف الفِطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك، قال: يا رب وما لطف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حَبّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها».

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويَكْلؤُه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمران قال: سمعت وَهْباً يقول: قال الله عزَّ وجلّ في بعض كتبه: «بعزتي، إنه من اعتصم بي، فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِلُه إلى نفسه، كفَّاي لعبدي مَلَاي، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفُق به منه».

قال أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن مُنَبِّه؛ وهو يطوف

بالبيت؛ فقلت له: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا، وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود!! أما وعزتي وعظمتي لايعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي ـ أعرف ذلك من نيّته ـ فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهم إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، وأما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيّته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسَخْت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك».

وهذا الوجه أظهر للعامة من الذي قبله. ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول ومنه دعت الرسل إلى الوجه الأول(١).

وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الوجه الأول، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً: محبته وعبادته، لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول.

ونظير ذلك: من ينزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذيذ مناجاته وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه ما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوّلاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أوّلاً حتى يطلبه، ويشتاق إليه، وفي نحو ذلك قال القائل.

جَزَىٰ اللهُ يَوْمَ الرَّوعِ خَيْراً، فإنَّهُ ... أرانا علىٰ عِلاَّتِه أُمَّ ثابِتِ
أرانا مَصُونَاتِ الحِجَالِ، وَلَمْ نَكُنْ ... نَراهُنَّ إلاَّ عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ

* * *

(١) هو ما جاء في الفصل الأول من هذا الباب، وهو التعرف على الله تعالى بألوهيته وربوبيته، سبحانه وتعالى.

الفصل السادس

التعلق بغير الله تعالى ضرر في الدارين

[ضرر التعلق بما سوى الله]:

الوجه السادس[1] : أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضَرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله.

فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك.

ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يُسْلَبَهُ ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته، ويعذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥][2].

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد كماسبق.

(٢) استطرد هنا المؤلف ليشرح جانباً من هذه الآية فقال: =

= ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه، على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»، وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة.

وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب، فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها، والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير، وأوضحه فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغر منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم، فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك. وهذا أيضاً من جنس ما قبله، فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولّى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه: من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن الإرادة ههنا كونيّة بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن.

فالصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاَّب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب، كقوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»، وقوله: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم، وهكذا مَنِ الدنيا كلُّ همه أو أكبر همه، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس: «من كانت الآخرة هَمه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نُصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه. =

[ضرر التعلق بالدنيا]:

ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لاتنقضي.

وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه؛ كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً)[1].

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن، ليست بدار إقامة، إنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين!! فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها. لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها. هي كالسم يأكله من لا يعرفه، وهو حَتْفُه، فكن فيها كالمداوي جراحَه، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرَّارة، الخداعة الخيالة، التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوقت لخطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي

= وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: ابنَ آدم! تَفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرك غنىً، وأسُدَّ فقرَكَ، وإن لا تفعلْ ملأتُ يديكَ شُغْلاً، وَلمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»، وهذا أيضاً من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم؛ كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب».

(١) متفق عليه (خ٦٤٣٦، م١٠٤٨).

لأزواجها كلهم قاتلة؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى، ونسي المعاد، فشَـغل بها لُبَّه، حتى زَلَّت عنها قدمـه، فعظمت عليها ندامتـه، وكبرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت، وعاشق لم ينل منها بغيتـه، فعاش بغُصَّته، وذهـب بكمده، ولم يدرك منها ما طلب، ولم تسترح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد. فكن أسرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وُصِل الرخاء منها بالبلاء، وجُعِل البقاء فيها إلى فناء سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان ربها لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل. فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ، وعنها زاجر؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن، ولا نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لاتنقصه عند الله جَناح بَعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً. فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها. ونسي ما صنع الله برسوله حين شد الحجر على بطنه».

وقال الحسن أيضاً: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُـب. فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها.

وهذا باب واسع، وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها.

ولما كانت هي أكبر هَمِّ من لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو لقاء ربه. كان عذابه بها بحسب حرصه عليها، وشدة اجتهاده في طلبها.

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق، فانِ في حب معشوقه، وكلما رامَ قرباً من معشوقه نأى عنه، ولا يفي له ويهجره، ويصل

عدوه. فهو مع معشوقه في أنكد عيش. يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلوّن، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه، ولا يجد عنه سبيلاً إلى سَلْوة تُريحه، ولا وصال يدوم له. فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا إرادته هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذباً بنفس ما كان ملتذاً به على قدر لذته به، التي شغلته عن سعيه في طلب زاده، ومصالح معاده؟.

[من أحبَّ شيئاً ـ سوى الله ـ عذب به]:

والمقصود بيان أن من أحب شيئاً سوى الله، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله: عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قيل:

أَنْـتَ القَتِيْـلُ بِكُـلِّ مَـنْ أَحْبَبْتَـهُ   فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوىٰ مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يومُ المعاد ولّى الحكَمُ العدل سبحانه كلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا. وكان معه: إما منعماً أو معذباً. ولهذا (يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بِلهزِمَتيه يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ويُصَفَّح له صفائح من نار يُكْوَى بها جَبينه وجَنبه وظهره)[1].

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله جمع بينهما في النار، وعذب كل منهما بصاحبه. قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك، يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٠٣).

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى. ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق «أليس عدلاً مني أن أُولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

وقال ﷺ: (المرء مع من أحب)[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ؟﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥].

قال عمر بن الخطاب: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، فَقُرِنَ كل شكل إلى شكله، وجعل معه قريناً وزوجاً: البَرُّ مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود: أن مَنْ أحب شيئاً سوى الله فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذب بفواته، وتألم على قوة تعلُّق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته: أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوىٰ حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حَالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ، أَو لاشْتِيَاقِ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٤٠).

فَيَبْكِـي إِنْ نَـأَوْا، شَـوْقـاً إِلَيْهِـم وَيَبْكِـي إِنْ دَنَـوْا، حَـذَرَ الفِـرَاقِ
فَتَسْخُـنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ التَّـلاقِـي وَتَسْخُـنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ الفِـرَاقِ

وهذا أمـر معلـوم بالاسـتقراء والاعتبـار والتجارب، ولهذا قـال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: (الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه)[1].

فذِكْرُه: جميع أنواع طاعته.

فكل من كان في طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر.

وكل من والاهُ الله فقد أحبَّه وقَرَّبَهُ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه، وهي نائلة كل ما عداه.

[اعتماد العبد على المخلوق خذلان]:

الوجه السابع[2]: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قَدَّر أن ينصر منها، ويـذم من حيث قـدر أن يحمد، وهذا أيضاً كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ـ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ـ٧٥]، أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٢).
(٢) أي من أوجه سعادة العبد، كما سبق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تَخسير.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق وضدهما في الخالق سبحانه.

فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به.

وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

* * *

الفصل السابع

منفعة الخالق ومنفعة الخلق

[الله تعالى محسن إلى عباده غني عنهم]:

الوجه الثامن[1]: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة بل رحمة منه وإحساناً. فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليتعزز بهم من ذِلّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ـ٥٨].

وقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد ﷺ: ٣٨]، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى

---

(١) أي من وجوه سعادة العبد.

ذلك، وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان لنفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقاً إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه.

فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، فهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير.

وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولم يعجز عنه.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله: (يا عبادي!! إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ يا عبادي!! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوَفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)[1].

[المخلوق لا يقصد منفعتك]:

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انْتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل مِنَّته.

فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعاً أو دفعاً، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم من بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه. والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه.

فالسعيد من عاملهم لله لا لهم، وأحسن إليهم لله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم مع الله، ورجا الله بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم بحب الله، ولم يحبهم مع الله، كما قال أولياء الله عزَّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٩].

[العبد لا يعرف مصلحتك حتى ينفعك]:

الوجه التاسع: أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يعرفه الله إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره الله عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة. فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه؛ وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلاً وعبودية: ضرر محض، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك.

[الخلق يريدون حاجاتهم منك]:

الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك، وخوفك بغيره؟

وجماع هذا أن تعلم: (أن الخلق كلهم لو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك)[1].

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

* * *

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦).

الفصل الثامن

خاتمة لهذا الباب

لما كان الإنسان بل وكل حي يتحرك بالإرادة، لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة، وله مراد مطلوب، وطريق وسبب موصل إليه، مُعين عليه، وتارة يكون السبب منه، وتارة يكون من خارج منفصل عنه، وتارة منه ومن الخارج، فصار الحي مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في حصول مراده.

والمراد قسمان:

أحدهما: ما هو مراد لنفسه.

والثاني: ما هو مراد لغيره.

والمستعان قسمان:

أحدهما: ما هو مستعان بنفسه.

والثاني: ما هو تبع له وآلة.

فهذه أربعة أمور: مراد لنفسه، ومراد لغيره، ومستعان بنفسه، ومستعان بكونه آلة، وتبعاً للمستعان بنفسه.

فلابد للقلب من مطلوب يطمئن إليه، وينتهي إلى محبته. ولابدّ له من شيء يتوصل إليه به ويستعين به في حصول مطلوبه.

والمستعان مدعو ومسؤول.

والعبادة والاستعانة كثيراً ما يتلازمان.

فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له، وذل له، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة، وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به، ويستعين بغيره عليه، كمن أحب مالاً أو منصباً أو امرأة، فإن علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به، فاجتمع له محبته والاستعانة به.

فالأقسام أربعة:

[الأول]: محبوب لنفسه وذاته، مستعان بنفسه. فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا الله وحده. وكل ما سواه فإنما ينبغي أن يحب تبعاً لمحبته، ويستعان به لكونه آلة وسبباً.

الثاني: محبوب لغيره ومستعان به أيضاً، كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض محبه.

الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره.

الرابع: مستعان به غير محبوب في نفسه.

فإذا عرف ذلك تبين مَنْ أحقُّ هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرة على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها.

والله المستعان وعليه التكلان.

* * *